# القصة العربية

نقصد بالقصة العربية فن القصص العربى وعلى الأخص ذلك الفن فى مصر ولسنا ممن يعتقد أن هناك استعداداً شعبياً خاصاً يميز بعض الأجناس فتكون أقدر من سواها على القصص . وذلك لأن عماد القصة هما قوتان من قوى العقل الأولى الخيال المنشىء والثانية التفكير المنطقى . ولعلنا إذا رجعنا إلى الملاحظة أمكن أن نتبين أن الأديب العربى لا يعوزه الخيال المنشىء ولا التفكير المنطقى ولو أن هاتين القوتين منصرفتان فى العادة الى أبواب اخرى من الأدب غير القصص

يؤخذ على الأدب المصرى خاصة وعلى الأدب العربى عامة أن رجاله انصرفوا فى كل العصور الى فنون كثيرة منه ولكنهم لم يوفقوا الى تكوين قصة وطنية عربية حتى لقد قال بعض كتاب تاريخ الأدب العربى أن هناك نقصاً فى نفس الخيال العربى أو خيال الجنس السامى عموما يجعله غير قادر على ايجاد ذلك النوع من الأدب الذى يمتاز به أدب الجنس الآرى منذ ايام اسكيليس وسنوكليس الى أيام دكنز الانجليزى وجوت الالمانى وأناتول فرانس الفرنسى

وقد يكون لمن يفكر مثل هذا التفكير بعض العذر فى قوله لأنه يحاول أن يفسر ظاهرة من ظواهر الأدب العربى يحار الانسان فى تفسيرها. وهذه الظاهرة هى خلو ذلك الأدب من القصص بالمعنى الصحيح . نعم قد يمكن أن يرد جماعة من متحمسى ادباء العربية قائلين أن الأدب العربى لا يخلو

من القصص وها هى الف ليلة وليلة وقصص عنتره وسيف ابن ذى يزن وأضرابها يمكن أن تعد قصصاً قومية فى الأدب العربى ولكن مثل ذلك الرد يكون من الردود الجدلية التى تحاول انكار الحقائق . فان الأدب العربى لم يعرف القصة كما عرفها الأدب اليونانى القديم ولا كما يعرفها الأدب الاوروبى فى هذه العصور

وإذن اليس هذا تناقضاً ؟ اننا نقول أن الأدب العربى ينقص نقصاً ظاهراً فى هذا الباب وهو القصص وفى الوقت نفسه نفكر قول من يقول أن هناك نقصاً فى خيال العرب والجنس السامى يجعل الاتجاه الى القصة غير ممكن . ولكن هذا التناقض ظاهرى فقط لأننا انما ننكر التعليل الذى ذهب اليه جماعة من مؤرخى الأدب ولسنا ننكر الظاهرة الأدبية ذاتها

لقد انصرف الفكر العربى الى مناحى شتى منذ اتسع له المجال ومنذ بدأ العرب يجاورون فى المدنية الامم القديمة من فرس وروم ومصريين وهى تلك الامم التى حل العرب فى أرضها وبدءوا ينشئون مدنيتهم على انقاض مدنياتها وتشعبت فروع التفكير أمام ذوى الثقافة من العرب فاشتغل منهم جماعة بالعلم وجماعة بالأدب — فاما العلم فانصرف له صفوتهم فصنفوا كتب الفقه وضربوا بسهم فى مختلف العلوم الوضعية الدنيوية — وأما الذين انصرفوا الى الأدب فكانوا فى العصر الأول اتباعاً لرجال السياسة بين شاعر متصل ببلاط ملك أو كاتبٍ مؤتمرٍ يخدم أميراً . وكان جزاؤهم من الامراء والملوك ولم تسمح لهم حال المجتمع بأن يجلوا الشعب محل العناية فيعملوا على تسليته أو تعليمه لاتجاههم فى الغالب الى خدمة السلطان والسير

فى مواطىء أقدامه والتغنى بمدائحه أو انفاذ ارادته . ولكن الأدباء فى العصر الأخير انصرفوا الى وجهة اخرى — فعند زوال القوة السياسية الهائلة التى كانت قد سيطرت فى العصر الأول على فكر الأدباء وخيالهم أصبح الأدب حراً طليقاً وكان يمكن أن ينصرف خيال الأدباء وفكرهم الى الأدب الصحيح من شعر وقصص الى فلسفة ودرس لما تشعر به النفوس الحساسة ولكن ذلك لم يكن ممكنا لأسباب أكبرها اثنان الأول أن زوال تلك القوة السياسية الهائلة جاء متأخراً مما شعرت الأفكار بالحرية حتى كانت الامة قد بلغت دور الترف والفساد وساعد على سرعة شيخوختها ذلك النظام الاستبدادى الذى امتازت به حكومات الاسلام المتأخرة . والسبب الثانى أن الأدب كان قد سار مدة طويلة فى سبيل معين فكان من الطبيعى أن يستمر مندفعاً فى سبيله ولو أن الظروف قد تغيرت ولهذا لم يحدث تطور خطير فى الأدب إلا أن الشعر أصبح أكثر تعبيراً عن الوجدان وأصبح معناه أعلى وأشرف مما كان عليه فى أول الأمر فنسمع رنة شعر أبى العلاء ثم شجون الخيام فى رباعياته ولم يقلد أدباء العرب قصص اليونان عند ذلك لأن العادة غلبتهم وكان أهل العلم من العرب فى نقلهم عن اليونان لا يقبلون إلا بالعلم والفلسفة ولهذا لم يلتفتوا الى الالياذه ولا اوديب الملك فلم يجد الادباء المتأخرون سابقة أسس يبنون عليها وصار الأدب العربى خلواً من القصة الحقيقية حتى العصور الحديثة

وهنا لنا سؤال نسأله . مادمنا ننكر أن هناك نقصا فى الخيال العربى والفكر العربى أو بقول أدق مادمنا ننكر أن هناك نقصاً فى الخيال العربى

المصرى والفكر العربى المصرى فهل يمكن أن يوجد بيننا قصص عربى مصرى ؟ جوابنا على ذلك أن ذلك لاشك ممكن وقد بدأت القصة المصرية تظهر فى أشكال شتى ولو أنها للآن لم تتخذ شكلا جديراً بالاحترام

لقد نهض الأدب المصرى منذ عهد قريب نهضة نرى أنها طبيعية فى ظروفنا الحاضرة فالامة ناشئة ناهضة من عصر نعتبره بحق عصراً مظلماً وقد بدأت أول نهضتها الحقيقية فى عصر محمد على ثم مازالت بعد ذلك تتحرك الى أعلى متثاقلة أحيانا ومتباطئة أحيانا الى أن بلغت درجة من القوة فى عصر اسماعيل ثم ها هى اليوم داخلة على عصرها الذهبى ولا أخالها إلا واجة أبوابه منذ الآن . واقصد بعصرها الذهبى عصر النبوغ الفكرى الذى يخلق فيه الأفذاذ . واتجهت الانظار منذ ذلك النهوض الى وجوه شتى وكان من بينها تلمس القصة سواء أكانت روائية أم تمثيلية

غير أن النفوس المتطلعة الى سد هذه الثغرة فى أدبنا لم تجد من ماضيها ولا عادة أدبها العربى ما يصرفها الى الابتكار والتأليف — فانصرفت الى الترجمة والنقل

ان القصص مستودع لمختلف الآراء فلسفيها وروحانيها وفيها يجد المؤلف مجالا متسعاً لاظهار ما فى نفسه من معانى مجسمة حية . فهى الشعر وهى الفلسفة وهى تحليل العاطفة وهى دراسة المجتمع — وهى تصوير فنى للتاريخ وعصوره والحياة فيه . واذا كان يراد بالقصة أن تكون ممثلة لحال البلاد بمعنى أنها تكون وطنية كان لابد أن تنشأ فى البلاد وتتمشى مع حالها النفسية والفكرية ضد البداوة والطفولة الاجتماعية الى النضوج والكمال

الاجتماعى — وهذه كانت الحال فى الأدب الاوروبى مثل الفرنسى والانجليزى فهناك نشأت القصة بدوية بسيطة عند ما كان الشعب بدوياً ساذج الفكر والعاطفة . ثم ما زالت ترقى برقيه وتنمو بنموه وتتطور بتطوره حتى أصبحت فى الوقت الحاضر تمثله فى مختلف العصور والأدوار فهى مرآته التاريخية والحالية

وكتاب كل عصر يجدون أمامهم أمثلة مما خلفته العصور الماضية فيندفعون فى السبيل القومى العادى بانين على الاساس الماضى — وبهذا يكون القصص فى مجموعه وحدة تامة تطورت تطوراً تاماً مع الأمة

أما فى الأدب العربى فلم يكن لنا ميراث نرثه ونبنى على أساسه ولهذا قامت النهضة الحديثة وتطلع الناس والأدباء الى القصة العربية فلم يستطيعوا أن يجدوا فيها ما يغنى وحاول بعض الكتاب أن يبدأ بالقصة العربية فكانت ثمرة مجهوده قصة بدوية بسيطة فلم يقدرها القارئ لأنها كانت دون مستواه الفكرى فان الحالة الاجتماعية الحالية فوق حالة البداوة اذ لا شك فى أن الفكر المصرى وان لم يصل بعد الى دور النضوج قد ترك دور الطفولة ولذلك كانت ميوله لا تتفق مع القصة البدوية بل تتطلب قصة تمثل العصر الحاضر وفكرته ونفسيته فانصرف الأدب الى مجال آخر وأخذ ينقل مما كتبه الفرنج أو الاوربيون عامة — وبطبيعة الحال كان الأدباء ينقلون أمهات المؤلفات وآيات الفن القصصى

ولكن ذلك كان أيضاً خطأ غير مناسب كما كان التأليف العربى

المبتكر غير مناسب لأن الأدب الأوربى ما زال فوق رؤوس عامة القراء وهذا دعا الى كساد سوق القصص بين العامة — وعامة الشعب القارئ هى المقصودة بالذات اذا أراد كاتب قصصى أن يؤلف قصة

فاصبحت الروايات المنقولة عن الادب الأوربى لا يتقبلها الا الخاصه والعلية الفكرية ورفضها الشعب القارئ رفضاً باتا اذ أنه لم يدركها لأنها غير طبيعية له ولا تعبر عن عواطفه وأفكاره

وأراد جماعة من ناشرى الكتب أن يصلو الى قلب الشعب فلما رأوا أنه لا يقدر آيات الأدب الاوروبى عمدوا الى السفاسف والتافهات من المؤلفات — فأقبل القراء عليها إذ كانت أقرب الى عقولهم — فليس فيها فلسفة عالية فوق رؤوسهم وفيها حوادث تسلى خيالهم وان لم تغذ عقولهم أو تعكس نفوسهم ومشاعرهم وهذا هو الموقف الحالى فالقصص الاوربى الراقى موجود بيننا ولكنه غير مقدور لا يقبل عليه إلا أقلية من العلية الفكرية وأهل التربية العالية — كما أنه يوجد بيننا القصص الاوروبى المنحط وهذا شائع بين الجمهور لا يفيده ولا يغذى عقله ولا ينير عاطفته بل كل مايعمله أنه يسلى فى وقت الفراغ بأن يفسح فى المجال للعقل أن يتخيل خيالا مطلقاً ويثير صورة من الصور

إذن لقد أخفق الأديب المصرى فى محاولة القصة الى الآن على الرغم من الشعور بضرورتها . والآن أممكن أن توجد بيننا قصة وطنية ؟

هذا سؤال تتوقف الاجابة عليه على امور كثيرة ولكننا مع ذلك لانتردد أن نجيب قائلين نعم يمكن ذلك بلا شك .

يجب أن يوجد أولا الكاتب الروائى . وأعتقد أن هذا موجود وان لم يكن كاتبا كاملا . ولكن ما معنى الكمال ؟ انجعل مقياس الكمال عندنا مثل مقياس الكمال فى اوروبا ؟

إذا كنا نقصد الى إعطاء قصة للشعب فلا بد من أن يكون مقياس الكمال عندنا هو أن تكون القصة ملائمة لعقل الشعب الحالى ونفسه وأن يمكن أن تثير القصة فى ذهنه صورة صالحة له — وأن تغذى عقله الغذاء الملائم له الذى يقدر أن يهضمه وينتفع به . فاذا قسنا كمال الكاتب عندنا بمقياس أناتول فرانس أو اضرابه من رجال الأدب الغربى كنا مبالغين مبالغة مضرة وكنا سالكين مسلكا غير طبيعى محكوم عليه حتما بالفشل ولهذا كان لابد أن نتطلب قصة جدية — ولكنها قصة توافق المجتمع الحالى وتلائم قواه . وفى اعتقادنا أنه إذا وجدت هذه القصة فلا بد أنها تنمو فى المستقبل مع المجتمع حتى تكون بعد جيل ملائمة له خاصة به منطبعة بطابعه الفكرى يعنى أنها تكون قصة وطنية ؟

محمد فريد أبو حديد